الالتفاف بالدين
لهدم الدين ؟!!! (*)

الإســـلام ممتحـــن هذه الأيام ببعض الشاردين من أبنائه أو المنتسبين إليه، مثلما هو مبتلى بأعدائه المعلنـــين والمتـــسترين.. يجـــاهر الـــبعض باستهدافهم الإسلام، ويتخفى ويلتف البعض الآخر لضرب الدين من داخله، واعين قاصدين، أو مخدوعين مغررين !

لا يختلف مسلم على أن القرآن الحكيم هو كتـــاب الإســـلام المبـــين، ومعجزته إلى الدنيا.. وحجة رسوله - ﷺ - إلى البشرية، ودستور المسلمين كافة فى كل شئون دينهم ودنياهم.. معجز فى بلاغته ورصفه وبيانه.. فى جرسه ومعماره الموسيقى ونظمه البديع وشحنته التى تملأ وتتغشى حنايـــا القارئ له.. معجز فى إخباره بأحوال القرون السابقة على تنزيلـــه، وفـــى إخباره عن وقـــوع حوادث فـــى مستقبل لا يتأتى العلـــم بهـــا إلاّ لعـــلاّم الغيوب.. ومعجز فيما اشتمل عليه من حقائق الكون وأسراره.. وفى اتساق عباراته ومعانيه، ودقة وشمول أحكامه وشريعته الجامعـــة التـــى يـــدرك

---

* الأهرام ٢٠٠٧/٨/٢٣، المال ٢٠٠٧/٩/١٦

إعجازها المسلم وغير المسلم، ويفهمها العربى وغير العربى.. من يعرف لسان القرآن ومن لا يعرفه.. القرآن المجيد هو دستور المسلمين الجامع فى كل شئون دينهم ودنياهم..فى العقائد، والعبادات، والأحوال الشخصية، والمعاملات، والعقوبات، والشئون الدولية.. ليس من شىء إلاّ وفى القرآن المجيد بيانه.. جعله سبحانه وتعالى هداية وبشرى للمؤمنين.. يهدى للتى هى أقوم، وفيه شفاء ورحمة.. ما فرط فيه سبحانه وتعالى من شىء : " مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ " (الأنعام ٣٨)

هذا القرآن المجيد لم ينزل به الوحى مباشرة إلى الناس، وإنما إلى رسول كريم اصطفاه الله لتلقيه وإبلاغ رسالته إلى العالمين.. الأنبياء هم حملة رسالات السماء، ومهمة رسول القرآن عليه السلام مستمدة من ذات القرآن.. يخاطبه رب العزة فى قرآنه الذى أمره باتباعه فيقول له : " يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ " (يس ١ــ ٥).. وفى سورة الإنسان : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً " (الإنسان٢٣).. لماذا ؟!.. ليبلغ رسالته إلى الناس، ويهديهم ويرشدهم ويبين لهم.. " وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ " (النحل٨٩).. ليقرأه رسول القرآن على الناس على مكث ويبين لهم.. " وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً " (الإسراء١٠٦).. فى حمل الرسالة وواجبات هذا التبيين يقول عز وجل : " وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ " (النحل٤٤).. " وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ " (النحل ٦٤)..

أغرب الغرابة أن يتخذ القرآن ذاته، على صراحة ووضوح ما أتى به عن تكليفه رسول القرآن عليه السلام بحمل رسالته إلى العالمين - مدخلا أو

سبيلا وعنوانا لتنحية السنة النبوية وإهدارها تحت مسمى : " القرآنيون ".. هذا اللفظ مختار بعناية مقصودة لخلق انطباع فيه مصادرة على المتلقين، بالإيحاء أن أصحاب هذا الفكر - أو الابتداع ! - يعظمون ويجلون ويقدمون القرآن، وهو تعظيم وإجلال وتقديم لا يمكن أن يعترض أو يختلف عليه أحد، إلاّ أن المقصود به لديهم هو تنحية وإهدار السنة النبوية بزعم أن القرآن المجيد فيه الكفاية والغناء. أجل. فيه الكفاية والغناء، ولكن دور وسنة حامل الرسالة فى بيان وتفصيل أحكامه، جزء لا يتجزأ من رسالة الإسلام.. الانحياز للقرآن المجيد وتعظيمه وإجلاله وتقديمه، وهو المصدر الأول للإسلام - لا يعنى استبعاد السنة النبوية.. قولية كانت أو فعلية أو تقريرية.. هذا الاستبعاد للسنة النبوية، هو ما ترمى إليه دعوة المتسمين بالقرآنيين.. هذه الدعوة - والله تعالى أعلم بالمقاصد والنوايا ولا نكفر أحدًا ! - دعوة تلتف بالدين لهدم الدين، وتتشح بالقرآن المجيد لتنحية سنة رسول القرآن !!! الفصم أو الفصل بين سنة رسول القرآن والقرآن - يناقض القرآن ذاته، مثلما يناقض معنى "الرسالة " ودورها فى البلاغ والبيان.. من (٣٧) عاما، تحديدًا فى يوليو ١٩٧٠، وقبل تفشى هذه البدعة، كتبت مقالاً لمجلة منبر الإسلام بعنوان " معاضدة السنة للقرآن ". هذه المعاضدة التى يرمى " القرآنيون " إلى تفتيتها وإهدارها بدعوى أنه لا حاجة إلى السنة أو السنة القولية مع وجود القرآن المجيد، هذه الدعوى ترمى إلى اختزال الدين وهدمه.. يسوقون لذلك تعلاّت وذرائع مغلوطة لا تصمد للبحث، ولكن الخطر أن هذه البدعة يمكن أن تتسلل إلى البسطاء أو أنصاف العارفين الذين لا يتعمقون الأمور أو اقتصر إلمامهم ببعض القشور دون أن تكتمل قاعدة علمهم بالدين ومصادره

وأحكامه، ولا يدركون معنى الرسالة واستحالة انفصامها عن سنة الرسول الذى حمل بلاغها وبيانها وتفصيلها وقواعدها إلى الناس !

الدعوة إلى حذف السنة بعامة أو السنة القولية بخاصة، دعوة ضالة مغلوطة، تحذف ركنا أصيلا من أركان المصدر الإسلامى، وتناقض ذات القرآن المجيد الذى تتوسل به لضرب دينه وهدمه !

رسول القرآن - عليه السلام - هو الذى حمل، كسنن كافة الرسالات السماوية، رسالة القرآن المجيد إلى الناس.. لا تتصور الرسالة بغير الرسول الذى تلقاها وأبلغها إلى الناس، ولا يتصور الإبلاغ بها مشمولا ببيانها بغير دور هذا الرسول فى أقواله وأفعاله وتقريراته.. ويتضح لزوم ذلك فى الإسلام بخاصة، أنه دين عالمى نزل للعالمين إلى يوم الدين، واقتضت عالميته أن يكتفى فى بعض المواضع ببيان المجمل المناسب لشتى العصور والأمكنة، وهذا من أسرار إعجازه، موكلا إلى رسول القرآن الذى لا ينطق عن الهوى ــ أن يبين ويفصل ويوضح، بيانا وتفصيلا يعاضد القرآن المجيد ولا يناقضه أو يخرج عنه، مقرونا بآيات قرآنية صريحة تأمر باتباع الرسول وطاعته والأخذ بما يأمر به والانتهاء عما ينهى عنه، دون أن تقيد هذه الطاعة الواجبة أو تخصصها بأى قيد أو تخصيص !

فى ذات القرآن المجيد الذى يتشح به " القرآنيون " لتنحية واستبعاد وإهدار سنة رسول القرآن، وردت آيات بينات فى هذه الطاعة وموجباتها.. " وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ " (النساء٦٤).. وفى سورة آل عمران : " قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ " (آل عمران ٣٢).. " وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " (آل عمران ١٣٢). وفى سورة

المائدة : " وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ " (المائدة ٩٢، التغابن ١٢).. وفى الأمر بطاعته فيما يأتى به، والانتهاء عما نهى عنه : " وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا " (الحشر٧).. من أطاعه - عليه السلام - فقد أطاع الله : " مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ " (النساء ٨٠).. " أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ " (محمد ٣٣).

تعدد الأمر بطاعة رسول القرآن فى العديد من آياته : (النساء ٥٩، الأنفال ٢٤، الرعد ٣٨، غافر٧٨، النور ٥٤، ٥٦ وغيرها).. هذا الأمر بالطاعة العامة، بغير تقييد أو تخصيص، قد اقترن بآيات أخرى تدل على معنى الأسوة والاقتداء، أو تدل على وجوب اتباع ما يقضى أو يقول به.. معنى الأسوة يدل دلالة قاطعة على وجوب التأسى والاقتداء بمنهج السنة، وجوبا عاما لا يقتصر على سنة فعلية دون السنة القولية أو التقريرية، وإهدار هذه السنة هو إهدار لمعنى الأسوة والاهتداء الذى قال فيه القرآن الحكيم : " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ " (الأحزاب ٢١)، ولذلك فليس غريبا أن يجعل القرآن من الرضاء بحكم رسول القرآن شرطا للإيمان لا يتم بغير تمامه واكتماله.. ترى فى سورة النساء دعوة صريحة إلى رد الأمور إليه عليه السلام، لا تكتفى بما ورد بالآية (٨٠) من أن من يطع الرسول فقط أطاع الله، وإنما توجب الآية (٨٣) رد الأمور إليه وتبين أنهم لو ردوها إليه " لعلمه الذين يستنبطونه منهم ".. ثم ترى فى الآية (٦٥) من سورة النساء دور النبوة فيما يشجر بين الناس وما يقتضيه من أقضيات أو أحكام أو أقوال جعل القرآن المجيد من قبولها والعمل بها آية من آيات طاعة الرسول بل شرطا من شروط الإيمان..

تقول الآية الكريمة : " فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا " (النساء ٦٥).

الدعوة إلى إهدار سنة رسول القرآن هى دعوة مصادة لذات القرآن المجيد، ندرك خطرها حين نعلم أن السنة فى الاصطلاح الشرعى هى ما صدر عن النبى عليه السلام من سنن قولية - ومنها تتكون معظم السنة، أو فعلية مثل أدائه الصلاة بهيئاتها وأركانها أو مناسك الحج، ومن أحاديثه عليه السلام التى اشتملت على مثل هذه التوجيهات النبوية : " صلوا كما رأيتمونى أصلى "... " خذوا عنى مناسككم ".. ومن السنة التقريرية، وهى ما أقره عليه السلام مما شاهده أو صدر عن بعض أصحابه من أقوال أو أفعال، سواء بسكوته وعدم إنكاره لها، أو بإفصاحه عن موافقته عليها.

والسنة المحمدية بأقسامها الثلاثة.. القولية، والفعلية، والتقريرية.. حجة على المسلمين.. تعد مكملة للقرآن الكريم، ومعضدة له.. ومصدرا من مصادر التشريع الإسلامى بعد الكتاب العزيز مباشرة.. وهى تكتسب هذه الحجية ما دامت مقصوداً بها التشريع والاقتداء، ونقلت إلينا بسند صحيح يفيد القطع، أو الظن الراجح بصدقه.. فلا يعد من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يأتيه من تصرفات وأعمال عادية فى مجال حياته اليومية وأمور معاشه، ما دام لم يقصد بها أن تكون تشريعاً للمسلمين أو قدوة يحتذونها.. وليس من شك أنه قد زاد من أهمية السنة المحمدية أن المصطفى عليه الصلاة والسلام أجاب على مدى ثلاث وعشرين سنة على عدد لا يحصى من أسئلة صحابته وغيرهم ممن أخذوا الدين عنه، وآمنوا برسالته.. تارة بما يلهمه الله تعالى به، وتارة بما يؤديه إليه

اجتهاده النبوى.. هذه الإجابات المتنوعة فى موضوعاتها المحكمة الجامعة فى مبادئها النبوية الرشيدة، قد صارت مصدراً خصباً ومفيداً لفهم الإسلام فى مبادئه وأصوله، وفى شتى فروعه التى تتصل بحياة الناس، وعلاقاتهم، وأمور دينهم.. ودنياهم..

وإذا كانت السنة المحمدية لها هذه المكانة والأهمية التى اكتسبتها بقيمتها الذاتية.. فإن البراهين الأخرى على حجيتها ولزوم اتباعها، ما دام مقصوداً بها التشريع والاقتداء، عديدة وقاطعة.. أولها هذه الآيات البيانات التى عرضناها، والتى يحثنا سبحانه وتعالى فيها ويأمرنا بطاعة الرسول والإيمان بنبوته.. وثانيها أن هذه السنة المحمدية ما هى فى حقيقتها إلاّ تبليغ لرسالة أمره الله عز وجل بتبليغها.. " وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى " (النجم ٣ــ٥).

حجية السنة التى تريد دعوة " القرآنيون " استبعادها وإهدارها، جزء أساسى من الدين.. هى التى بينت - قولاً وفعلاً - فرائض الصلاة والصوم والزكاة والحج.. لا مرجع سواها فى بيان هذه الفرائض التى هى أركان الإسلام.. وهى فى أحيان أخرى جاءت مفصلة ومفسرة لما جاء فى القرآن مجملا، أو منشئة ومثبتة لحكم لا ينطق فيه رسول القرآن عن الهوى - مثل تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، أو تحريم الحمر الأهلية وسباع البهائم تفصيلا لما ورد فى القرآن المجيد فى قوله تعالى : " وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ " (الأعراف ١٥٧).

حذف السنة من المدونة الإسلامية، هو هدم للإسلام.. وأكثر منه مغالطة التذرع بمدى ثبوت السنة لإهدارها.. فالسنة النبوية قد جمعها أئمة كبار سجلوا فى كتب الصحاح رواياتها ورواتها تفصيلا دقيقًا فيما انبنى

عليه علم الحديث الذى أقام بقواعد صارمة مصفاة بالغة الدقة والإحكام لا يمر منها الحديث الموضوع، وأول معاييرها الدقيقة المدققة ألا يتعارض الحديث مع القرآن، فإن تعارض - دل ذلك على أنه موضوع ومنسوب كذبا إلى رسول القرآن عليه السلام.

لا نكفر أحدا ولا نتهمه فى نواياه، ولكننا نريد للمسلمين أن يعوا أن السنة هى والقرآن الكريم معا متعاضدان فى إقامة الدين، وأن الدعوة تحت أى ستار لتنحيتها أو استبعادها هى فى الواقع اختزال ضرير وهدم للدين يتناقض مع معنى الرسالة، ودور حاملها الذى كان التجسيد الحى والتطبيق الواعى لأحكام الشريعة، والمشعل الوضاء والمنار الهادى لأحكام الدين، بل إن هذه البدعة تتناقض مع ما أورده ذات القرآن الذى تتشح به البدعة اتشاحا مغلوطا.. وتصادر على رسول القرآن المجيد الذى قال فيه : " وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضلالاً مَبِينا " (الأحزاب ٣٦).. وكيف تهمل أو تجنب أو تستبعد سنة رسول القرآن الذى قال فيه الحق تبارك وتعالى : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا " (الأحزاب٤٥، ٤٦) صدق الله العظيم.